بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الحلقة الثّانية
من محاضرات في مقرر المُعجِزة والإعجاز
المفهوم والمنزلة أهمية معرفة الإعجاز
لطلاب وطالبات السّنة الثانية من المرحلة التمهيدية للتخصص (الماجستير) في البلاغة والنقد
المحاضر محمود توفيق محمد سَعد القاضي
مِن كتاب «إعجاز القرآن:الإعجاز في دراسات السابقين» للشيخ:عبد الكريم الخطيب. (ص ٨٧-١٥٠)
الاثنين غرة رمضان ١٤٤٥هـ

المحور السادس
زمان العجزة ومكانها
يدور مقالُ الشّيخ الخطيب على نقاط رئيسة :
= الحِكمة الالهيّة تقتضِي أن تقعَ المُعجزة مَوقعَها زمانًا ومكانًا = أحسن مواقع الخير أن يأتيَ ونفوسُ النّاس وقلوبهم متشوفةٌ مستشرفةٌ إليه فيلقاهم وكأنّهم على موعِد فيقع فيهم موقعًا حميدًا
= معجزاتُ الرّسل تأتِي ونفوسٌ وقلوبٌ تتطلع إليها شوقًا كأنها أمل مرتقب فتنجع فيهم ،وتلك هي المعجزات التي تأتي بين يدي الرسل تصديقًا، فهي معجزات تبني الشخصية الإيمانية الإصلاحية للإنسان لتعمر الحياة عبادة لله وحده، فهي معجزاتٌ تأتي على وفق متطلبات إعمار الحياة، فتكون للقوم الصالحين
= وثَم نوعٌ آخر من الآيات والمعجزات تأتي عقوبة على من كفر بالآيات السّابقات . هي آيات تأتي لتدمر وتبيد وتهلك الظالمين المكذبين كمعجزة الطوفان والزّلزلة والصّيحة والإغراق ... تأتي بغتة لأنها لا تأتي إرشادًا بل تأتي عقابًا على الإعراضِ عن الحق والخير الذي بُيّن لهم فصدوا عن سبيل الله وصادموا. وهي معجزات من منطق العدل جزاء وفاقًا .
فكثيرٌ من الأنبياء له نوعان من الآيات المعجزات :
[الأوّل]: النّوع الذي هو رحمة ونور يهدي إلى الّتي هي أقوم لتعمر الحياة كونًا وإنسانًا ،وليكون المرءُ فيها عبدًا عابدًا
وتكون هذه الآيات المعجزات النيرات في مبدأ الدعوة وفي أثنائها، حتى إذا استيأس الأنبياء، واستفحل الكفران والعصيان جاءت الآيات الأُخر المعجزات المهلكاتُ
[الآخر]: الآياتُ المعجزاتُ الّتي يؤيد بها أنبياءه، ويعاقب بها الذي ظلموا أنفسهم . فتأتي مبيدة مهلكة. (إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ)[ص:١٤] (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ

وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ * وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ)[غافر:٥- ٦] (كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ)(ق:١٤)

= كان من جليل فضل الله تعالى بأمّة رسولِه محمّد ﷺ أن عصم أمّته من تلك المعجزات المهلكة . أبقى الظالمين المصادمين ، فدخل أكثرُهم في الإسلام ، فلا تكاد تجدُ عربيًّا قحًا على غير دين الإسلام ،وعُظم غير المسلمين في الأرض ليسوا عربًا خُلّصًا ، وهذا من إكرام الله ﷺ لرسوله ﷺ وأمته

(فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣) **وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ** (٤٤)[الزخرف]

روى مسلم في كتاب«الفتن وأشراط الساعة »من صحيحه بسنده عَنعَامِرُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- أَقْبَلَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْعَالِيَةِ حَتَّى إِذَا مَرَّ بِمَسْجِدِ بَنِى مُعَاوِيَةَ دَخَلَ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ وَصَلَّيْنَا مَعَهُ وَدَعَا رَبَّهُ طَوِيلاً ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْنَا فَقَالَ -صلى الله عليه وسلم- « سَأَلْتُ رَبِّى ثَلاَثًا فَأَعْطَانِى ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِى وَاحِدَةً سَأَلْتُ رَبِّى أَنْ لاَ يُهْلِكَ أُمَّتِى بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يُهْلِكَ أُمَّتِى بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا ».

وفي رواية لابن ماجه في كتاب «الفتن»من صحيحه بسنده عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَوْمًا صَلاَةً فَأَطَالَ فِيهَا فَلَمَّا انْصَرَفَ قُلْنَا - أَوْ قَالُوا - يَا رَسُولَ اللَّهِ أَطَلْتَ الْيَوْمَ الصَّلاَةَ قَالَ « إِنِّى صَلَّيْتُ صَلاَةَ رَغْبَةٍ وَرَهْبَةٍ سَأَلْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لأُمَّتِى ثَلاَثًا فَأَعْطَانِى اثْنَتَيْنِ وَرَدَّ عَلَىَّ وَاحِدَةً سَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يُهْلِكَهُمْ غَرَقًا فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَرَدَّهَا عَلَىَّ ».

= عرض الشّيخ الخطيب لما ذهب إليه بعضُ أهلِ العلم من أنّ معجزة سيدنا موسى ﷺ لم تكن موافقة لما كان عليه حال أهل مصر، فهم لم يكونوا أهل سحر بل أهل شعوذة وحيل لاتقوم على علم ولذلك لم يصمد المشعوذون أمام عصا موسى ﷺ

ونقد الشّيخ الخطيب ذلك بأن ذلك مخالف لوقائع التّاريخ فأهل مصر وفراعينهم كانت لهم قدرات عجيبة لا تقوم على الشعوذة والحيل بل على السحر، والقرآن الكريم قد سماهم سحرة ، فالعدول عن تلك التسمية بغير دليل إنّما هو مردود ،ولو كانوا مشعوذين لا سحرة وأصحاب حيل لما عمَد فرعون إلى أن يتصدى لتحدي سيدنا موسى ﷺ ، فجمع السحرة لردع ما جاء به سيدنا موسى ﷺ يقول الحقّ ﷻ :(وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ

أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠)][الأعراف]

ويقول :(وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (٦٠) قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى (٦٢) قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (٦٤) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (٧٠)[سورة طه]

(قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١)][الشعراء]

فالقرآن وشواهد التاريخ تؤكد أنّ المصريين زمن سيّدنا موسى عليه السلام كانوا مهرة في السحر، فمعجزته عليه السلام كانت من جنس ما برعوا فيه

= كثر في عهد سيدنا عيسى عليه السلام المتنبؤون ومدّعون امتلاكهم قوى روحية تَشفي من الأمراضِ المستعصية، وكانوا مهرة في الإيحاء النفسيّ لا في الطبِّ العلمي الموضُوعي ، كانوا أقدر بذلك الإيحاءِ على التأثير في الآخرين وهذا أليق به أن تكون معجزة نبيهم قوة روحية حقيقة تنهارُ أمامَها كلّ ضروب الإيحاء النَفسيّ الذي برَع فيه من أرسلَ إليهم .

= على الرّغم من أنّ كل آية كانت ملائمة لما برع فيه من جاء بها النبي إليهم ،وبالرغم من قوة الآيات والمعجزات التي جاءت بها الأنبياء فإنّ أكثرهم كان من المعرضين ،وليس ذلك لأمر في الايات والمعجزات، وإنّما لما وقر في قلوبهم من العَمَه والحقد والهوى والعصبية والاستكبار، وتلك أدواء عوائق لا سبيل لمن أخذت به،وامتلكته أن يبصر الحقيقة . وقد سجل الله تعالى عليهم ذلك فقال:(قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ)[الأنعام:٣٣]

(يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ)(النحل:٨٣)

(وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا) (الإسراء: ٥٩)

= كذلك الأمر في معجزة سيدنا محمد ﷺ جاءت من جنس ما برع قومه فيه :«البيان»فكانت معجزة عقليةً تدرك بالفكر وتبقى بقاء الحياة ما دام هنالك عقل يفكر. وهذا مطابقٌ مقتضَى عموم الرّسالة المحمديّة : لما كان رسالة الإسلام للناس كافة (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)[سبأ:٢٨] كان حرّى أن تكون معجزة الرسالة باقية ببقاء النّاسِ في الدنيا ، ولما كان الناس ليسوا ذوي لسان واحد لم تنحصر معجزة رسول الله ﷺ :«القرآن» في بلاغته اللسانية التي لا يدركها إلا عليم بلسان العرب، بل كان كلّ شيءٍ فيه هو معجزة ،فوجوه إعجازه لا تُحصَى ، وما يُذكر العلماء إلا ما انكشف لهم ، وسيبقى معجزة مهما تقدّمت الحضارات والمدنيات والأنظمة بل كلّما تقدمت العلوم والمعارف والأنظمة تكشفت لنا وجوه من إعجازه ما تزال غائمة .

= كانت العرب قبل الأسلام لا تعرف من الحضارة سوى الكلمة وما إليها ، لم يكونوا أهلَ علم أو طب أو عمران أو فن وغير ذلك كما كانت الأمم الأُخر من حولهم .

والكلمة ليس مجرد صوت يُسمع .الكلمة وليد عقل يفكر ويتبصر ثم يغبر عما أنتجه العقل ، فأنت إذْ تسمع كلمة فأنت تطلع على ما أنتج العقل بتفكيره وتدبيره . الكلمة هي خلاصة تجربة، وممارسة وتبصر، وأنت لا تجد أمّة جعلت شواهد ومعالم وملامح حضارتها منْ ذاتها من داخلها من تفكيرها وتدبيرها وتأملها في آيات هو الكون الفسيح وساعد انفتاح الفضاء على التأمل والتبصر، فكان العقل لا يكفعن التبصر،وكان ما ينتجه العقل تقيده الكلمة .من هنا كان العرب أمة البيان ،وكان للبيان فيهم شأن أي شأن فالشعر ديوانهم ومجمع حضارتهم وموثق حياتهم، فكان للشّاعر منزلة

تعدل منزل الفارس، فجاء القرآن فسمعوا بيانًا أدهشهم ، وأخرجهم عمّا هم فيه بيْد أنّ العصبية والحقد والاستكبار جعلت أكثرهم لا يستبصر ما يسمع، ولايتحرّر من سطوة العصبية لدين آبائه {وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ}[الزُّخرُف:٢٣]

واستعبدهم سلطان الاستكبار(وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢)(الزخرف)

تناقض جليّ نعتوا القرآن بأنّه سحر ،وقالوا لولا أنزل على رجل عظيم، فدلّ على أنّهم لا يدفعون الحقّ بل الأمر مرجعُه إلى من جاءهم به، وهو عند ربه عظيم .فهم يعرفون الحق بالرجال،ولا يعرفون الرّجال بالحق . خللٌ في عقولهم. وضلالٌ في رؤيتهم.

****

المحور السابع

لماذا العرب وحدهم

= قلنا إن حضارة العرب تتمثل في شيءٍ من ذاتها : في الكلمة، لا من خارجها كسائر الأمم ، فكان اعتناؤهم بالكلمة اعتناء بفكرهم وما يميزهم عن الأمم الأخر.

والله - سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ – في طليعة سورة الرحمن يقول(الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤))(الرحمن) فدل هذا على أن جميع أنواع البشر لهم لسان يتكلمون به ، فما من أمّة من أمم الإنسانية ، إلا ولها لغتها التي تتعايش بها، فما وجه القول بأن العرب أمّة الكلمة، وأن هذا أوفق بأن تكون معجزة النبي الخاتم ﷺ القائم فيهم للناسِ كافة هو الكلمة «القرآن» ؟

الحقّ أنك لا تَجِد أحدًا يزعم أنّ العرب وحدهم من دون سائر الأمم هم الذين يتكلمون ويبينون ، فهذا تكذيب لصريح القرآن إنّما القصد أنّك لا تجد أمّة عُنيت بالكلمة عناية العربِ بها ، ولن تجد أمّة جعلت حضارتها في الكلمة ، فَلِسموّ قدرِ اعتنائها بالكلمة كان غيرها كأنّه ليس بذي كلمة . فهو كقولك : "الشّجاع محمّد" أنت لا تنفي الشّجاعة عن كلّ ما عداه ، وإنما تجعل شجاعة غيره في جانب شجاعتِه كلا شَجاعةٍ.

= ممّا أعان على أن تكونَ للكلمة عند العربيّ منزلةٌ عَليّة ظروف حياتهم في الصّحراء القاحلة المترامية الأطراف ، فلم تجد العربُ حولها ما يشغلها سوى أن تتبصّر وتفكّر وتتأمل ، فينتج العقل مزيجًا من الفكروالشعور، فتترع صدورهم بذلك، ولا بُد للصدور أن يتنفث . يقول سيدنا سحاربن عياش العبدي حين سأله سيدنا معاوية - رَضِيَ اللهُ عَنْهُما : ما هذه البلاغة التي فيكم؟ قال: صحار :«شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا. »

وهذا شأن الإنسان إذا أقيم في فراغٍ فريدًا جريدًا ، فإنه يلجأ إلى التبصر والتفكر ، فيجيش صدره بالمعاني ، فيفث ذلك في الكلمات، ويعنى بها لأن من فرطة الإنسان أن يعنى بما هو فريد عنده، . ومن ثَم كانت الكلمة هي السبيل للعربيّ في خلوته مقيما أو مرتحلًا لأن ينفث ما أعتلج في صدره، فيتغنى، فكانت الكلمة الشاعرة ، وكان صمتُ الصحراء حافزًا على أن تخرج الكلمة ذات إيقاع لتتأنس به النفس في وحشة الفضاء، فكانت الكلمة موقعة، وكان الشعر هو الذي يشغل العربي إذ يفضي بما فيه من لواعج متكاثرة

= غيرهم من الأمم وجدوا ما يشغلهم،ويقتل إحساسهم بالفراغ والوحشة، فشغلوا بها عن اختصاصِ الكلمة الشاعرة بالعناية ،ولم تكن الكلمة عندها في مهمتها الرئيسة سوى أداة تواصل وتعايش ، لم تكون وسيلة مأنسة وإفراغ لواعج الصدر كما كانت عند العرب ، ومن ثم لم تكن الكلمة هي الممثلة لحضارتهم،وإن كان لهم شعر وقولٌ إلّا أن ذلك من دون ما كان لأمّة العربِ .

= ولما كانت بيئة العربية بيئة صحراوية يعتمدون فيها على الارتحال وراء العشب والماء، وكان عندهم الشّتاء قحطًا مما جعلهم يفتخروا بأنّهم يطعمون الناس في الشتاء:

نحنُ في المَشْتاةِ ندعوا الجَفَلى • لا تَرَى الآدِبَ فينَا يَنْتَقِرْ

فكانوا يغيرون على بعضهم، فتنشب بينهم الحروبُ ممّا يشغلُ حياتهم، ويفجّر فيهم لواعجَ الأسَى والحزن حينا والعصبية الهوجاء والفخر حينا فتكونُ الكلمةُ الشّاعرة متنفسهم ، وكانوا أميل إلى الفخر والمدح ، فاتخذوا الشّعر مِضمرًا، وقامت فيهم الأسواقُ الشّعريّة التي يتبارى فيها الشّعراءُ وتعقدُ فيها حلقاتُ المنافرة ويقضي فيها كبيرهم، ويتناقل الناس أحداث ذلك ويروونه ويحفظونه ، ومن ثَم كانَ الشّاعر ثم الخطيب مناط فخرها كمثّل ما كان الفارسُ فيها ممّا جعل للكلمةِ الشّاعرة قدرًا عليًّا وغدا سماعُ الشّعر وروايته محطَّ عنايةِ شيوخِهم وشبابهم ونسائهم ، ممّا كاد يكون سجيةُ إبداعُه أو تَلَقّيه، فمَن لم يكن فيهم شاعرًا كان للشّعر محبًا حافظًا.

ولا تكادُ تجدُ أمّة غيرَ العربِ كان الشعرُ والتّغني بها ميراثُها وكان ديوان مكارمِها ومفاخرها ومآثرها.وقد أُثر قولُهم« " لا تدع العرب الشّعر حتى تدع الإبل الحنين ". »

فالشّاعر فيها أشبه بوزارة الإعلام والثقافة والتعليم والتربية، والإرشاد والتوجيه المعنوي فينا ، فهو ذاكرة الإمّة.

ولكلّ قبيلة شاعرُها أو شعراؤها، وكانت القبائل في هذا متفاوتةٌ بل كانت الأسر في القبيلة الواحدة متفاوتة في كثرة شعرائها وفحولتهم.

يقول ابن سلام الجمحي(ت:٢٣٢هـ) :« لَا يحاط بِشعر قَبيلَة وَاحِدَة من قبائل الْعَرَب وَكَذَلِك فرسانها وساداتها وأيامها»(١)

يقول أستاذنا " الخطيب"« ونستطيع أن نؤكّد أنّ العربَ وحدهم من بين سائرِ الأمم هم الذين استطاعوا أو يصوغوا الحياة كلّها في تلك الكلماتالتي أصبحت لغةً مكتملة البناءِ واسعة الأركانِ بما أبدعوا وولّدوا من أمهاتها وأصولها

ونستطيع أن نؤكد -أيضًا- أنّ العربَ قد استطاعوا أن يحملوا لغتهم كل ما تحتمل الفنون الجميلة كلُّها من مُلهماتٍ وأسرار»(٢)

وبهذا غدت العربية من أكثر اللغات ألفاظًا وأوسعها مذاهب إبانةٍ بما تحقق فيها من عامل الإعراب الذي منح المتكلم بها حرية في البناء ونظم الكلم والجمل ، وبما تحقق لها من عامل الاشتقال، فتكاثرت كلماتها ، وكذلك عامل القياس عند من يقول به ، فنمت العربية..

---

١) طبقات فحول الشعراء . تأليف أبي عبج اللهمحمد بن سلّام بن عبيد الله الجمحي (ت: ٢٣٢هـ) احقيق: محمود محمد شاكر

الناشر: دار المدني – جدة . ج.١ص ٣

٢) الإعجاز في دراسات السابقين.ص١١٢

يقول الإمام الشافعيّ(ت:٢٠٤هـ) في كتابه الإمام في علم أصول الفقه المسمّى «الرسالة» :« ولسان العرب: أوسع الألسنة مذهباً، وأكثرها ألفاظًا([1]) ولا نعلمُه يُحيط بجميع علمِه إنسان غيرُ نبي، ولكنه لا يذهب منه شيء على عامتها، حتى لا يكون موجوداً فيها من يعرفه. » ([2])

ومن بعده قال الجاحظ في كتابه الموسوعة«الحيوان» في مبحث [تخليد العرب والعجم لمآثرها] : « وليس في الأرض أمّة بها طرق أو لها مسكة، ولا جيل لهم قبض وبسط، إلّا ولهم خطّ. فأمّا أصحاب الملك والمملكة، والسلطان والجباية، والدّيانة والعبادة، فهناك الكتاب المتقن، والحساب المحكم، ولا يخرج الخطّ من الجزم والمسند المنمنم والسمون كيف كان، قال ذلك الهيثم بن عدي، وابن الكلبي.

قال: فكلّ أمّة تعتمد في استبقاء مآثرها، وتحصين مناقبها، على ضرب من الضروب، وشكل من الأشكال.

وكانت العرب في جاهليّتها تحتال في تخليدها، بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون، والكلام المقفّى، وكان ذلك هو ديوانها. وعلى أنّ الشعر يفيد فضيلة البيان، على الشاعر الراغب، والمادح، وفضيلة المأثرة، على السيّد المرغوب إليه، والممدوح به. وذهبت العجم على أن تقيّد مآثرها بالبنيان...

قال: ثمّ إنّ العرب أحبّت أن تشارك العجم في البناء، وتنفرد بالشعر، فبنوا غمدان، وكعبة نجران ، وقصر مارد، وقصر مأرب، وقصر شعوب والأبلق الفرد، وفيه وفي مارد، قالوا «تمرّد مارد وعزّ الأبلق» وغير ذلك من البنيان.

قال: ولذلك لم تكن الفرس تبيح شريف البنيان، كما لا تبيح شريف الأسماء، إلّا لأهل البيوتات....

فقال بعض من حضر: «كتب الحكماء وما دوّنت العلماء من صنوف البلاغات والصّناعات، والآداب والإرفاق ، من القرون السابقة والأمم الخالية، ومن له بقيّة ومن لا بقيّة له، أبقى ذكرا وأرفع قدرا وأكثر ردّا، لأنّ الحكمة أنفع لمن ورثها، من جهة الانتفاع بها، وأحسن في الأحدوثة، لمن أحبّ الذكر الجميل»(أهـ)

يقول ابن سلام:« وَكَانَ الشّعْر فِى الْجَاهِلِيّة عِنْد الْعَرَب ديوان علمهمْ ومنتهى حكمهم بِهِ يَأْخُذُونَ وَإِلَيْهِ يصيرون

---

[1]) تأمل قوله «أوسع الألسنة مذهباً، وأكثرها ألفاظًا» جعل الاتساع للمذهب وطريقة النظم،والكثرة للألفاظ ، فأصول المواد اللغوية في العربية قليل ،ولكن ما يتولد منها بالاشتاق يجعلها ثريةً فهي لغة متكاثرة الألفاظ، وهذا التكاثر فوق الكثرة، ففي التكاثر تجدد وفي الكثرة تعدد فهي كثيرة الألفاظ متكاثرتها.

[2]) الرسالة تأليف الإمام الشافعي محمد بن إدرس المطلبي (ت:٢٠٤هـ) تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر . أحمد شاكرالناشر: مكتبه الحلبي، مصر (ط:١) عام ١٣٥٨هـ ص:٤٢

.... قَالَ عمر بن الْخطاب كَانَ الشّعْر علم قوم لم يكن لَهُم علم أصح مِنْه»(١)
وهكذا أضحت الكلمة الشاعرة في العرب ديوان مآثر كما كانت مناط تفريج عن لواعج وتصوير لما يموجُ في الصور من حب وغضب،ومن اعتزاز وفرح ومن أسى ومن ترح ،ومن زلفى ومنافرة. كانت الكلمة الشاعرة هي كلّ شيْءٍ في تسجيل حياتهم العامة والخاصة
يقُوا الحبيب أبو تمام «حبيب بن أوس الطائي»:
ولَمْ أرَ كالمَعْرُوفِ تُدْعَى حُقُوقُه
مَغَارِمَ في الأقوام وَهْيَ مَغَانِمُ
ولا كالعُلَى مالَمْ يُرَ الشعْرُ بَيْنَها
فكَالأرضِ غُفْلاً ليسَ فِيها مَعالِمُ
وما هو إلا القولُ يسري فتغتدي
لَهُ غُرَرٌ في أوْجُهٍ ومَوَاسِمُ
يُرى حِكْمَة ً مافيهِ وهُوَ فُكَاهَة ٌ
ويُقْضِي بما يَقْضِي بهِ، وهُوَ ظَالِمُ
فما بالُ وَجْهِ الشعرِ أغْبَرَ قاتماً
وأنفِ العُلى من عطلة ِ الشّعرِ راغمُ
تَدَارِكْهُ إنَّ المَكْرُمَاتِ أصابعٌ
وإنَّ حُلَى الأشعار فيها خَوَاتِمُ
إذا أنتَ لَمْ تحفظْهُ لَمْ يَكُ بِدْعَة ً
ولا عَجباً أن ضَيَّعَتْهُ الأعَاجمُ
فقدْ هزَّ عطفيهِ القريضُ توقعاً
لِعَدْلِكَ مُذْ صَارَتْ إليكَ المَظَالِمُ
ولولا خلالٌ سنها الشعرُ ما درى
بغاة ُ الندى من أين تؤتى المكارمُ
وما قاله في شأن اللسان العربي المستشرقون لم يُقَلْ في لغة أخرى من لغات البشر.(٢)
= يقول المستشرق الفرنسي "لويس ماسينيون" (١٨٨٣- ١٩٦٢م): إن اللغة العربية أدخلت في الغرب طريقة التعبير العلمي، والعربية من أنقى اللغات وأفردها في طرق التعبير العلمي والفني
= ويقول الإسباني "فيلا سبازا : « إن الذين حولوا كل قواهم إلى التعليم الأجنبي، جاعلين لغة أجدادهم في المنزلة الثانية، قد سدوا الطريق في وجه ظهور مواهب كثيرة. فاللغة العربية من

١) طبقات فحول الشعراء.د:١ص٢٤
٢) راجع كتاب« محاولة في أصل اللغات » لجان جاك رسوا (م.س) طبعة بغداد ص ٧--٧١

أغنى لغات العالم بل هي أرقى من لغات أوروبا لأنها تتضمن كل أدوات التعبير في أصولها، في حين الفرنسية والإنجليزية والإيطالية وسواها قد تحدرت من لغات ميتة، وإني لأعجب لفئة كثيرة من أبناء الشرق العربي يتظاهر أفرادها بتفهم الثقافات الغربية ويخدعون أنفسهم ليقال عنهم أنهم متمدنون»

= ويقول المستشرق المجري عبدالكريم جرمانوس: "إنَّ في الإسلامِ سندًا هامًّا للغة العربية أبقى على روعتِها وخلودها، فلم تنل منها الأجيال المتعاقبة، على نقيضِ ما حدث للغاتِ القديمة المماثلة كاللاتينية؛ حيث انزوت تمامًا بين جدرانِ المعابد، ولقد كان للإسلامِ قوة تحويل جارفة أثرت في الشعوبِ التي اعتنقته حديثًا، وكان لأسلوبِ القرآن الكريم أثرٌ عميق في خيالِ هذه الشعوب، فاقتبست آلافًا من الكلماتِ العربية، ازدانت بها لغاتها الأصلية، فازدادت قوةً ونماءً، والعنصرُ الثاني: الذي أبقى على اللغةِ العربية هو مرونتها التي لا تُبارى، فالألماني المعاصر مثلاً لا يستطيع أن يفهمَ كلمةً واحدةً من اللهجةِ التي كان يتحدث بها أجدادُه منذ ألف سنة، بينما العربُ المحدثون يستطيعون فهمَ آداب لغتِهم التي كتبت في الجاهليةِ قبل الإسلام".

= وتقول الألمانية "سيجريد هونكه":"كيف يستطيع الإنسان أن يقاوم جمال هذه اللغة ومنطقها السليم وسحرها الفريد؟ فجيران العرب أنفسهم في البلدان التي فتحوها سقطوا صرعى سحر تلك اللغة".

ويقول الأمريكي "فان ديك": "العربيةُ أكثر لغاتِ الأرض امتيازًا، وهذا الامتيازُ من وجهين؛ الأول: من حيث ثروة معجمها، والثاني: من حيث استيعابها آدابها".

= ويقول البلجيكي الأمريكيّ "جورج ألفريد ليون سارتون" (١٨٨٤– ١٩٥٦م):« إن اللغة العربية أسهل لغات العالم وأوضحها، فمن العبث إجهاد النفس في ابتكار طريقة جديدة لتسهيل السهل وتوضيح الواضح، فإذا فتحت أي خطاب فلن تجد صعوبة في قراءة أردأ خط به، وهذه هي طبيعة الكتابة العربية التي تتسم بالسهولة والوضوح »

= ويقول الفرنسي العنصري "إرنست رينان" (١٨٢٣ – ١٨٩٢م):« من أغرب ما وقع في تاريخ البشر انتشار اللغة العربية فقد كانت غير معروفة فبدأت فجأة في غاية الكمال سلسة غنية كاملة، فليس لها طفولة ولا شيخوخة، تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها وحسن نظام مبانيها »

= ويقول المستشرق الإيطالي كارلو ألفونسو نَلّينُو (١٨٧٢ - ١٩٣٨ م): « اللغةُ العربية تفوقُ سائرَ اللغاتِ رونقًا وغنًى، ويَعجزُ اللسانُ عن وصفِ محاسنها».

المِحور الثامن

وقفة مع الشعر الجاهلي

من قبل أن نقف مع الشعر الجاهلي باعتبار أنّه هو أقدم ما وصلنا من شعر العرب فحقّ أن تتبصر مقالة شيخ العربية في زماننا الشيخ محمود محمد شاكر ﷺ (١٣٢٧-١٩٩٨هـ) يصق الشعر:

يقول« ولفظُ الشّعرِ في لسانِ العربِ موضوعٌ للدّلالةِ على كلّ كلامٍ شريف المعنى ، نبيل المبنى ، محكم اللفظِ يضبطه إيقاعٌ متناسب الإجزاء ، وينتظمه نغمٌ ظاهرٌ للسّمعِ ،مفرطُ الإحكام والدقة في تنزيل الألفاظِ وجرسِ حروفها في مواضعها منْه ؛ لينبعثَ من جميعها لحنٌ تتجاوبُ أصداؤه متحدّرةً من ظاهرِ اللفظِ وباطن المعنى .[1]

وهذا اللحنُ هو الذي نسميه «القصيدة »

وهذا اللحنُ المُتكاملُ يقسّمُ تقسيمًا متغانق الأطرافِ ،متناظرَ الأوصالِ ،تحدده قوافٍ متساويةُ البناءِ والألوان ،متناسبة المواقعِ متسلاوية الأوزانِ. هذا هو الشّعر.

والذي يتوخّى هذا الضربَ الشريفَ النبيلَ المحكَ من الكلامِ ،ويأخذه بِحقِّهِ ويبذله بِحقِّه، فتصغِي إلَيهِ الأسماعُ والألبابِ مأخوذةً بسحرِه وجمالِهِ وجلالِه هو«الشاعر».

هذه هي بَديهةُ اللغةِ ،وبديهةُ اللسانِ العربيّ قديمه وحديثِهِ في الأحقاب بعد الأحقاب »[2]

وتمثّل هذا أمجد تمثيل وأحمده في شعر ما قبل البعثة المحمدية(الشعر الجاهليّ)[3] وما قالت العرب في الجاهلية كثير لم تحفظه كله الذاكرة الشفهية، فقد كان لكل شاعر راوية، أو أكثر فلم يكن معهودًا التوثيق الكتابي ،ولو كان لبلغنا فيضٌ من إبداعهم.

---

[1])حقٌ لنفسك عليْك طالبَ علم أن تحفظ وتتبصر مقالة الشيخ شاكر في بيان جوهرِ الشعر فهو به عليم،وحق لك عليك أن تتبصر استفتاحه القول ب«شريف المعنى ،نبيل اللفظ» وكيف اختار لكل نعته ،وما بين الشرف والنبل من اتفاقٍ وافتراقٍ ووجه اختصاص كل بنعته، وكذلك تتبصر كلَّ عنصر من عناصر جوهر الشعر . حاول ولا تعجز. وهذه العناصر هي الأحق بالرعاية في قراءة الشعر وتحليله ونقده،وكأن الشيخ شاكر يرسم لك خريطة طريقة إلى قراءة القصيدة وتحليلها ونقدها .

وكنت قد بينت شيئًا في ذلك في مقال نشرته في مجلة «الأدب الإسلامي » الصادرة عن رابطة الأدب الإسلامي العالمية المجلد(٤) العدد(١)سنة ١٩٩٧م(ص ص:٣٧-٤٥) تحت عنوان «موقف أبي فهر ، محمود شاكر من قضية عمر الشعر الجاهلي »

[2]) قضايا الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام. تأليف أبي فهر محمود محمد شاكر. الناشر مطبعةالمدني بالقاهرة،ودار المدني بجدة السعودية. (دزت) ص: ٣٧-٣٨

[3]) نعت بالجاهلي باعتبار العصر الذي أبدع فيه،وهي جاهلية معتقد وعلم، لا جاهلية أخلاق ومبادئ.

روى الشيخان في صحيحيهما بسندهما عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ - رضى الله عنه قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ قَالَ « أَتْقَاهُمْ » . فَقَالُوا لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ . قَالَ « فَيُوسُفُ نَبِىُّ اللَّهِ ابْنُ نَبِىِّ اللَّهِ ابْنِ نَبِىِّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ » . قَالُوا لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ . قَالَ « فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونَ خِيَارُهُمْ فِى الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِى الإِسْلاَمِ إِذَا فَقُهُوا » .

«قَالَ يُونُس بن حبيب قَالَ أَبُو عَمْرو بن الْعَلَاء مَا انْتهى إِلَيْكُم مِمَّا قَالَت الْعَرَب إِلَّا أَقَله ،وَلَو جَاءَكُم وافرا لجاءكم علم وَشعر كثير»([1])

ولم تكن العرب قديما تطيل القصيد ، بل كانت إلى المقطوعات أقرب، فإنما هي زفرات تستفرغ من الصدر لواعجه،والمقطوعة الشعرية تحمل ومضة فكرية وشعورية، فهي أدخل في باب الإيجاز الذي يتكاثر معناه في فؤاد المستصر بالتأمل، فكلما زدته تبصرًا وتدبرًا اتسع المعنى في فؤادك وأورق ، وأزهر ، وأثمر.

يقول ابن سلام الجمحي:« وَلم يكن لأوائل الْعَرَب من الشّعْر إِلَّا الأبيات يَقُولهَا الرجل فِي حَاجته وَإِنَّمَا قصدت القصائد وَطول الشّعْر على عهد عبد الْمطلب وهَاشِم بن عبد منَاف»([2])

يذهبُ أيضًا إلى أنّ « أول من قصد القصائد وَذكر الوقائع المهلهل بن ربيعَة التغلبي فِي قتل أَخِيه كُلَيْب وَائِل قتلته بَنو شَيبَان .... »([3])

ويذهب الجاحظ إلى أنّ ممّا«يدلّ على حداثة الشعر، قول امرئ القيس بن حجر:

إنّ بني عوف ابتنوا حسنا * ضيّعه الدّخللون إذ غدروا

أدّوا إلى جارهم خفارته * ولم يضع بالمغيب من نصروا

لا حميريّ وفى ولا عدس * ولا است عير يحكها الثّفر

لكن عوير وفى بذمّته * لا قصر عابه ولا عور

فانظر، كم كان عمر "زرارة" ! وكم كان بين موت "زرارة" ومولد النبي عليه الصلاة والسلام؟! فإذا استظهرنا الشعر، وجدنا له - إلى أن جاء الله بالإسلام- خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام. »([4])

مجمل الأمر أن الذي بين أيدينا من الشعر الجاهلي يمثل أمجد الشعر وأنبله ، فمن يطيقُ فقهه، فشعر كل العصور من بعدُ عليه يسير،ومن ثَم كان أفضل مجال لتنشئة الباحقين في الكلمة الشاعرة.

يقُول أستاذنا الخطيب:« ومن الواضحِ أنّ الشّعر الذي حفظ لنا من تلك الفترةِ اعتبر الصّورة الكاملة للشعر الجاهلي

ومِن هذا الشّعر صدرت آراء النّقاد والدارسين الحياة العقلية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية للأمة العربية في جاهليتها ..إذ كان الشّعرُ هو الأثرُ الأوّلُ والأخيرُ الّذي انطبعتْ عليْهِ السّماتُ

---

[1]) طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي(ت:٢٣٢هـ) تحقيق محمود شاكر ج:١ص٢٥

[2]) السابق ج:١ص ٢٦

[3]) السابق ج:١ص ٣٩

[4]) الحيوان ج:٧١/١-٧٢ ،وقد ناقشه الشيخ شاكر في مقالته في محاضرت التي نشرت بعنوان «قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام » ص:١١ وما بعدها،ولم يرتض ما انتهى إليه الجاحظ من تقدير عمر الشعر الجاهلي،،،أنظر معه م مقالي «موقف محمود شاكر من عمر الشعر الجاهلي » مجلة الأدب الإسلامي.(م،س)

الظَّاهرةُ والخفيّةُ للحياةِ الجاهليّة، فما عرف الجاهليون فنًا غير الشّعرِ يسجلون فيه أحداث الحياةِ وما تثيرُ في نفوسهم من انفعالات وتصورات...»(١)

والمكتبة العربية كثر فيها القول في تصوير الشعر الجاهلي حياتهم في مجالات الحياة التعددة المتنوعة نظرًا إلى أن الشعر هومرآة الحياة ، وأن الشعر في حقيقته ليس مجرّد انكفاء على الذات الشاعر بل هو يصور لنا انعكاس السياق الحضاري الذي يعيش فيه الشاعر في نفسه ، فهو يشعر بحركة الحياة وتموجاتها على تحة ألطف مما يشعر به الأخرون،ومن ثَم كان جديرًا باسم الشعر،ولعلَ العرب في اشتقاق اسمه الوظيفيّ من «الشعور»ما يدل على أن الأصل فيه ألا يصور السياق الحضاري حوله كما تصوره " الآلة المصورة" [الكاميرا] وهذا من محاسن العربية (٢)

ولم تكن العرب معنية بشَيْءٍ من فنون التصوير كالنحت والرسم والموسيقى وغير ذلك استغناء بفاعلية الكلمة الشاعرة،واقتدارها على أن تعكس العالم الداخلي لصانعها بصدق وأمانة ، ثم هي تقيم حوارًا متجددًا بينها وبين متلقيها وهي الأداة التصويرية التي يصحبها المرء في جميع مساقاته وأحواله، أمّا الرسم والموسيق والنحت... فذلك يقتضي استصحابًا لما يتحقق به التصوير، وفوق هذا الكلمةُ الشاعرة هي المقتصدة من ذات الشاعر لا من خارجه،وكلُّ أدوات التصوير الأخر هي من خارج الذات المصورة.

فليس رغبةَ العربيّ عن النحت والتصوير والموسيقى والرسم من ندرة أدواتها أو جهالة بها، فقد كانت لهم أسفار في أقطار اتخذت ذلك وكان بملكهم أن ينقلوا ذلك ، لكنهم للقانتهم فقهوا الفرق الجوهري بين التصوير بالكلمة الشاعرة،وغيرها من أدوات التصوير المشتقة من خارج الذات المصورة.

والعرب في اتخاذهم الأصنام والأوثان آلهة لم تكن صورة ما نحت ذات إبداع إذا ما قورنت بما كان في الحضارة الفرعونية .وظني أن العربي لم يكن هو الذي ينحت هذه الأصنام والأوثان ، بل هي من صنعة العبيد .

بقيت الكلمة الشاعرة هي الأداة الفريدة الأثيرة لتصوير الحياة الخاصة والعامة، وكانت كل قبيلة تعتز وتفخر بشاعرها ، وكان قبيلة تغلب من أكثر القبائل اعتزازًا بشاعرها ، وهم بو تغلب بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان. وكانت ذات عدد وقوة، ولا سيما في زمن كليب (وائل)بن ربيعة بن ربيعة بن الحارث بن زهير التغلبي، أول ملوكهم وأقواهم قتله جساس بن مرة البكري ، فكانت حرب البسوس التي بقيت أربعين عاما وكان شاعرها الممجد فيها«عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب بن سعد بن زهير التغلبي» صاحب المعلقة ومطلعها :

---

١) الاعجاز في دراسات السابقين.ص١١٥- ١١٦

٢) من هذه الكتب كتاب أد أحمد محمّدالحوفي:«الحياة العربية من الشّعر الجاهلي» .

أَلا هُبّي بِصَحنِكِ فَاَصبَحينا *وَلا تُبقي خُمورَ الأَندَرينا
مُشَعشَعَةً كَأَنَّ الحُصَّ فيها *إِذا ما الماءُ خالَطَها سَخينا

وقد حرصا لبقبيسلة على أن ترويها ابناءها لما اشتملتْ عليه من صور الفخر والحث على مكارم الأخلاق. فكانت جديرة بأن تكون من المعاقات سواء صح خبر تعليقها على أستار الكعبة أو تعليقها في قلوبها .

وهذا يُنْبِئُ بمكانة الشعر في العرب ،فهو ديوانهم، فلما جاء الإسلام بالقرآن رأت العرب بيانا ليس كمثله بيان فأدهشهم، وأقامهم في حيرة، ما ذا يفعلون ، وهم أشد الناس تعلقًا بآثار آبائهم ، فالقرآن يعلو على آثار آبائهم البيانية ، وهو فوق ذلك يدعوهم إلى أن يتركوا معتقدات آبائهم فجمع القرآن عليهم كبيرتين:

= العلو على ما ظلوا به يتفاخرون :« الشّعر»

= وترك آلتهم التي عبدوها مع آبائهم وأجدادهم

فكان لزمًا تحت سلطان العصبيّة لأبائهم ميراثًا بيانًّا ومعتقدًا ، وتحت سطوة الحقد والاستكبار أن يتصدوا للدعوة الإسلامية، وكانت قبيلة تغلب من أشد القبائل عنتًا وتصدّيا للإسلام، فقد كان أكثرهم على النصرانية .

والقرآن في سطوته البيانية عليهم لم يكن ليحاجزهم عن الشعر ، ، فبقيت العرب حفية به من بعد القرآن ، فإنهم رأوا الشعر سبيلا إلى حسن فهم القرآن،وقد كان امير المؤمنين عمر إذا سأل عن معنى كلمة في القرآن فقيل له قال أو تعرف العرب ذلك

سأل عمر -رضي الله عنه- عن قوله تعالى وهو على المنبر، فسكت الناس حتى قام شيخ هذلي، وقال: هذه لغتنا:التخوف: التنقص، فقال عمر: وهل شاهد؟ فأنشد لأبي كبير:

تَخوف الرجل منها تامكاً صلباً * كما تخوف عود النبعة السفن.

فقال عمر: عليكم بديوانكم -شعر العرب- ففيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم.(1)

---

(1) ينظر تفسير تفسير الكشاف للزمخشري ومعه فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف)
المؤلف: شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (ت: ٧٤٣ هـ) (سورة النحل)لناشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم
الطبعة: الأولى، ١٤٣٤ هـ ج:٩ص ١٢٨
وتفسير باهر البرهان فى معانى مشكلات القرآن. تأليف أبي القاسم: محمود بن أبي الحسن علي بن الحسين النيسابوريّ الغزنوي(ت ٥٥٣هـ) تحقيق سعاد بنت صالح بن سعيد بابقي. جامعة أم القرى (سورة النحل)
الناشر: جامعة أم القرى - مكة المكرمة حرسها الله تعالى
عام النشر: ١٤١٩ هـ -

ورأوا أنه لا تعاند بين إعلاء شأن القرآن في وعيهم الإيماني والثقافي واعتنائهم بالشعر، ولا سيما أن نبيّ الإسلام - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبهِ وَسَلَّمَ – كان يستمع إلى عَليّ الشّعر ،ويستنشده أصحابه، واتخذ له شعراء أميرهم حسان ابن ثابت - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

روى مسلم في كتاب«فضائل الصّحابة من صَحيحه بسنده عَنْ أم المؤمنين عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْها - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ « اهْجُوا قُرَيْشًا فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْهَا مِنْ رَشْقٍ بِالنَّبْلِ ». فَأَرْسَلَ إِلَى ابْنِ رَوَاحَةَ فَقَالَ « اهْجُهُمْ ». فَهَجَاهُمْ فَلَمْ يُرْضِ فَأَرْسَلَ إِلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ حَسَّانُ قَدْ آنَ لَكُمْ أَنْ تُرْسِلُوا إِلَى هَذَا الأَسَدِ الضَّارِبِ بِذَنَبِهِ ثُمَّ أَدْلَعَ لِسَانَهُ فَجَعَلَ يُحَرِّكُهُ فَقَالَ وَالَّذِى بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لأَفْرِيَنَّهُمْ بِلِسَانِى فَرْىَ الأَدِيمِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « لاَ تَعْجَلْ فَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ أَعْلَمُ قُرَيْشٍ بِأَنْسَابِهَا - وَإِنَّ لِى فِيهِمْ نَسَبًا - حَتَّى يُلَخِّصَ لَكَ نَسَبِى ». فَأَتَاهُ حَسَّانُ ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ لَخَّصَ لِى نَسَبَكَ وَالَّذِى بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لأَسُلَّنَّكَ مِنْهُمْ كَمَا تُسَلُّ الشَّعْرَةُ مِنَ الْعَجِينِ. قَالَتْ عَائِشَةُ فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ لِحَسَّانَ « إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ لاَ يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ مَا نَافَحْتَ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ». وَقَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ « هَجَاهُمْ حَسَّانُ فَشَفَى وَاشْتَفَى ». قَالَ حَسَّانُ

هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ وَعِنْدَ اللَّهِ فِى ذَاكَ الْجَزَاءُ

هَجَوْتَ مُحَمَّدًا بَرًّا تَقِيًّا رَسُولَ اللَّهِ شِيمَتُهُ الْوَفَاءُ
فَإِنَّ أَبِى وَوَالِدَهُ وَعِرْضِى لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ
ثَكِلْتُ بُنَيَّتِى إِنْ لَمْ تَرَوْهَا تُثِيرُ النَّقْعَ مِنْ كَنَفَىْ كَدَاءِ
يُبَارِينَ الأَعِنَّةَ مُصْعِدَاتٍ عَلَى أَكْتَافِهَا الأَسَلُ الظِّمَاءُ
تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطِّرَاتٍ تُلَطِّمُهُنَّ بِالْخُمُرِ النِّسَاءُ
فَإِنْ أَعْرَضْتُمُوا عَنَّا اعْتَمَرْنَا وَكَانَ الْفَتْحُ وَانْكَشَفَ الْغِطَاءُ
وَإِلاَّ فَاصْبِرُوا لِضِرَابِ يَوْمٍ يُعِزُّ اللَّهُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ
وَقَالَ اللَّهُ قَدْ أَرْسَلْتُ عَبْدًا يَقُولُ الْحَقَّ لَيْسَ بِهِ خَفَاءُ
وَقَالَ اللَّهُ قَدْ يَسَّرْتُ جُنْدًا هُمُ الأَنْصَارُ عُرْضَتُهَا اللِّقَاءُ
لَنَا فِى كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍّ سِبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هِجَاءُ
فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ
وَجِبْرِيلٌ رَسُولُ اللَّهِ فِينَا وَرُوحُ الْقُدُسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ »

يقُول أستَاذنا الخطيب:« ومعَ الآثارِ القويةِ الواضحة التي تركها الدّين وكتابه الكريمُ في عقليّةِ العربِ ،وفي مساربِ تفكيرهم ،وفي تصوراتهم وأخيلتهم ،ومع ما أفاضتْ الحياةُ الجديدةُ عليْهم من ألوان ومظاهر لم يكن لهم إلفٌ بها ومع العقليات الجديدةِ التي اختلطتْ بِهمْ وحسبتْ منهمْ ومع

الثقافاتِ التي دخلَ بها الداخلون في الإسلام من فارس والروم والهند ومصر وغيرها – مع هذا كله فقد ظلّ سلطان الشّعر الجاهليّ قويًا على النفوسِ ، فَلمْ تجدْ بُدًّا من السير في طريقه إذ لمْ يكن في مقدورها مع هذه الرّوافد الحديدة التي أمدّها بها الدّين الجديد والحياة الجديدة - أن تجيءَ بخيرٍ منه إذ كان في أعلى مستوى يمكنُ أن يصلَ إليْهِ الفن العبقري من فنونِ القَوْلِ علَى لسانِ البشر»(١)

****

١) الاعجاز في دراسات السابقين.ص ١٢٠

المحور التاسع

الإســـلام والشعر الجَاهليّ

لمّا كان الشّعرُ قبل الإسلام هو السّبيلُ إلى تصوير ما يعتلج في العربيّ من لواعج النّفسِ على تعدّدها وتنوّعها، وكانت الذّات الشّاعرة بكلّ مكوناتِها العقدية الجاهلية والثّقافية والسّلوكية وعلاقتها بالحياةِ كونًا وإنسانًا ، وجاء الإسلامُ مُحدثًا تغييرًا جوهريًّا في البُعد العقديّ ظنّ أنّ الإسلام سيقف من الشعر موقفه من العقيدة الجاهلية، وكأنّ العربيّ خاضعة كلٌّ موكوناتِه النّفسية والفكرية والسلوكية لمعتقده الجاهلي [الشّرك بالله تعالى]، وواقع الحياة للعربي قبل المبعث ليست كذلك، فقد كانوا ذوي أخلاقٍ وقيمٍ عالية، والشّعر الجاهليّ مُترعٌ بتصويرها ، ولم يأت الإسلام إلّا تزكية لها وتذكية وحثًّا على الاستمساك بها ،والرسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ – قال « فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونَ خِيَارُهُمْ فِى الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِى الإِسْلاَمِ إِذَا فَقُهُوا » .(متفق عليه)

وظنّت ثلّة أنّ ثَم تعاندًا بيْن الإسلام الشّعر باعتباره السّبيل إلى تصوير رؤية الشّاعر الجاهلي للحياة كونًا وإنسانًا وتصويرًا للواعجه النفسية ،ولاسيما حين نزل قول الله تعالى في خاتمة سورة «الشّعراء» :

(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧)[الشعراء]فالتفت إلى صدر الآيات وهي تقرّر أن الشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ،ولم يلتفتوا إلى سباقها ولحاقها، فسباقها يقرّر أنّ الشّياطين تتنزّل على كلّ أفّاك أثيم ،فمناطُ المذمّة إنّما هو الإفك ، وأنَّ الشّعراء الذين يتبعهم الغاوون إنما هم الذين لاضابط لهم ففي كلّ واد يهيمون ،وهذه بالغة المذمة لايطيقُ عاقلٌ أن ينعت بها، لأنها تؤول إلى غياب عقله،وغلبة هواه ، فكاد أن يكون ضريعًا للأنعام ، وأن أقوالهم لا تطابق أفعالهم ، وهذه مناط مذمة من كل من تلبس بها شاعرًا كان أو غير شاعر. فلم تحسن هذه الثلة تحرير مناط المؤاخذة والمذمة .

يقُول أبو بكر الجصاص الحنفي(ت٣٧٠) :« ذَمَّ اللَّهُ الشُّعَرَاءَ الَّذِينَ صفتهم ما ذكروهم الذين في كل واد يهيمون يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ وَشَبَّهَهُ بِالْهَائِمِ عَلَى وَجْهِهِ فِي كُلِّ وَادٍ يَعِنُّ لَهُ لِمَا يَغْلِبُ عَلَيْهِ مِنْ الْهَوَى غَيْرَ مُفَكِّرٍ فِي صِحَّةِ مَا يَقُولُ وَلَا فَسَادِهِ وَلَا فِي عَاقِبَةِ أَمْرِهِ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ فِي كُلِّ لَغْوٍ يَخُوضُونَ يَمْدَحُونَ وَيَذُمُّونَ يَعْنُونَ الْأَبَاطِيلَ »([1])

ليس مناط المذمة الشعر ، بل كلّ من تلبس بهذه المثالبِ ولو كان خطيبًا أو غير مبين .

يقُول عبد القاهر)ت:٤٧١هـ):« مَن زَعَم أنَّ ذمَّه له من أجْل ما يَجدُ فيه من هزلٍ وسُخف وكذبٍ وباطلٍ، فينبغي أن يذمَّ الكلامَ كلَّه، وأن يُفضِّل الخرَسَ على النُّطق، والعيَّ على البيان، فمنثور كلامِ النَّاسِ على كلِّ حالٍ أكثرُ من منظومِه، والَّذي زعمَ أنه ذمَّ الشِّعرَ من أجلهِ وعاداهُ بسببه فيه أكثر.

لأنَّ الشّعراءَ في كلِّ عصرٍ وزمانٍ معدودون، والعامَّة ومَنْ لا يقولُ الشعرَ منَ الخاصَّةِ عديدة الرَّمل، ونحنُ نَعْلم أنْ لو كانَ منثورُ الكلام يُجمعُ كما يُجْمَع المنظومُ، ثم عمدَ عامدٌ فجمعَ ما قِيلَ من جنْس الهَزْل والسُّخف نثراً في عصرٍ واحدٍ، لأَرْبى على جَميعِ ما قاله الشعراءُ نَظْماً في الأزمانِ الكثيرةِ١، ولغَمره حتى لا يظهرَ فيه.»([2])
.وغفلت هذه الثلةُ –أيضًا- عن الاستثناء الذي جاء عقب ذلك (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) هذا استثناء من الشّعراء عامة. فقوله (إِلَّا الَّذِين أمنوا...) جاءت فيه صلة الموصُول من أربع جمل« آمَنُوا »« عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ »«ذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا»«انْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا»

فكلّ متكلم كان في كلّ وادٍ يهيم ، ويتبعه الغاوون هو مناط مذمّة شاعرًا كان أوغيره ، وكلّ من تحلّى بهذه الحُلى الأربع فهو ممن نجل من تلك المذمةِ والمعرة شاعراً كان أو غيره. فلا وجه للا ستشهاد بألآيات على ممذة القرآنِ الشّ◌عرَ على

وقوله تعالى «الشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ» ليس من قبيل «التّخصيص الحصري» أو ما يسميه البلاغيون«تخصيص الثبوت» وما يسميه الأصوليون من غير الحنفية«مفهوم

---

[1]) أحكام القرآن. تأليف أبي بكر: أحمد بن علي الرازي الجصاص الحنفي (ت: ٣٧٠هـ) تحقيق محمد صادق القمحاوي ، نشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت عام : ١٤٠٥ هـ . ج:٥ص ٢١٥

[2]) دلائل الإعجاز تحقيق شاكر.ص ١١-١٢

المخالفة» كلّا هو من قبيل «التخصيص الذكري» «تخصيص الإثبات» وإنما صرح بالشعراء لأنّ ذلك أظهر فيهم من غيرهم، فهو قولك «الشاعر المتنبي» لا تريد أنّ من عداه ليس بشاعر،وإنّما تريد أنّهم عندك بجانبه كأنّهم ليسوا بشعراء مبالغة منك في إعلاء شأن شاعريّة المتنبّي.

وقد يتشبث القائلون بأن الإسلام لم يرتض الشعر بأن الله تعالى نفى عن رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ – الشعر (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠)[يس]

وهذا يلزمه أن يكون قوله تعالى في حقّه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ – (وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُون}[العنكبوت:٤٨] لم يرتض الكتابة والقراءة، وقد كان غير قليل من كبار الصحابة يقرأ ويكتب،كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - وكانت بعض أزواجه - رَضِيَ الله عَنْهُن - تقرأ وتكتب كالسيدة حفصة - رَضِيَ الله عَنْها – وكان له كتلب وحي وكتاب رسائل.

فحكمة أنّه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ – لم يكن ينبغي له الشعر لأنّ الشعر قبيح أوالكتابه قبيحة بل لأمر متعلق بالدعوة والنبوة، لذا قال تعالى (إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُون) فلنفي الريبة عنه من أنه تعلمه من آخرين جعله لا يستطيع أن يقول الشعر،ولا أن يحفظه،ولا يطيق القراءة والكتابة.

وقد يتشبث بعضٌ بما رواه الشيخان في صحيحيهما عَنْ سَالِمٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ - رضى الله عنهما - عَنِ النَّبِىِّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ « لأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا » .

فالاشتشهاد بذلك على تنفير رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ – من الشعر غير قويم، وليس قويماأيضًا أن هذا خاص بالشعر الذي هجي به رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ – لأن قليله وكثيره يحرم روايته، والصواب أن الذي كره أن يكون الغالب على المسلم هو الشعر بحيث لا يبقى فيه مكان لعلوم الكتاب والسنة والعلوم المستمدة منهما والعلوم التي بها تعمر الحياة ، ولذا قال« أنْ

يَمْتَلِئَ شِعْرًا » فمناط النمهي غلبة الشعر على سائر العلوم النافعة ولا سيما علوم العقيدة والشريعة..

ومن البين أنّه لما كان الشعر متأصلا في بعضٍ من أسلم لم يكن الإسلام صارفًا لهم عن قول الشعر كلية، بل هذب موقفه من ممارسته، فلم يقولوا من الشعر ما يتعارض مع الحق والخير، فبقي كثيرٌ من الصحابة يقول الشعر .

ولم يعهد عن صحابي أن قال شعرًا فيه ما يُخالف أصول الإسلام وأخلاقه، كما لم يعهد عن صحابي كان يقول الشعر قبل أسشلامه ثم كف عنه بعد إسلامه إلا ما روي عن سيدنا أبي عقيل لبيد ربيعة - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أنه استغنى بالقرآن عن قرضِ الشّعر.

يقُول ابن سلّام الجمحي:« وَكَانَ لبيد بن ربيعَة أَبُو عقيل فَارِسًا شَاعِرًا شجاعا وَكَانَ عذب الْمنطق رَقِيق حواشي الْكَلَام وَكَانَ مُسلما رجل صدق قَالَ وَكتب عمر إِلَى عاملة أَن سل لبيدا والأغلب مَا أحدثا من الشّعْر فِي الْإِسْلَام فَقَالَ الْأَغْلَب

أرجزا سَأَلت أم قصيدا ... فقد سَأَلت هينا مَوْجُودا

وَقَالَ لبيد قد أبدلني الله بالشعر سُورَة الْبَقَرَة وَآل عمرَان

فَزَاد عمر فِي عطائه فَبلغ بِهِ أَلفَيْنِ »(1)

وهذا لا يمثل ظاهرة يستدل بها أو يستأنس.

والقول بأنّه بقيت ثلة من الأعراب التي دخلت الإسلام ولم يتمكن في قلوبها لبعدها في البادية عن مجالسة الرسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آله وصَحبِهِ وَسَلَّمَ -، فكانت في شعرها تأتي بما لا يتواءم مع منهاج الإسلام إنّما هو قول يفتقر إلى براهين قطعيّة الثّبوت والدّلالة، وذلك أيضًا لا يمثّلُ ظاهرة .

كان للإسلام أثر كبير في الحياة العربية بكلّ جوانبها بما يحمله من قيم عقلية وروحية واجتماعية وإنسانية.. وكان الهدي الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور وبعثهم بعثاً جديداً استضاؤوا فيه بهدي القرآن الكريم والرسول الصادق الوعد الأمين.

---

(1) طبقات فحول الشعراء: ج:١ ص ١٣٦

له بالغ الأثر في الشّعر أيضًا، ولا غرابة في ذلك، فالشعر هو التّعبير عن المشاعر والتجسيد للأفكار.

ومن يناظر شعر صَحابي قبل اسْلامه،وشعره بعده يرى تغيرًا جوهريًّا في محموله المعرفيّ الذي شطله فكره وشعوره وموقفه من الحياةِ ورسالته فيها.

******

المحور العاشر

ماذا في الشعر الجاهليّ

لمّا كان فطرة في الإنسان لأن يتخذ ما يسجل به ما يحب أن يحتفظَ به ليأنس به من جهةٍ ،وليتخذه مرجعًا يرجع إليه، يهتدي بما فيه من مناقب،ويجتنب ما فيه من غيرِها ، وكان العربُ لا يملكون من تسجيل حضارتهم سوى الكلمةِ وكانت عنايتهم بها من عنايتهم بحضارتهم و تاريخهم كان الشعر في الجاهلية هو ذاكرتهم وديوانهم كما قال الفاروقُ عمر - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – فكان هذا الشعر هو مراءة العاكسة لحياتهم الخاصة والعامة، ولعلاقة القبائل بعضِها ببعضٍ ،ولعل هذا ما بعثهم على اصطفاء قصائد من شعرهم فعلت على أستار الكعبة أو علقت في قلوبهم ، وتداولوها، ورواها خلف عن سلفٍ لما فيها من تسجيل لوقائع حياتهم ،ولما فيها من جمال الأداء الصادق.

يذهبُ أد محمد النّويهي(١٩١٧- ١٩٨٠م) إلى أن إن قيمة الشعر الجاهلي في المقام الأول إلى الرابطة الوثيقة بين الجعر والحياة مع ماله من السمو في وسائله الأدائية « فهذه الرابطةُ هس التي تكسبُ الشعر أهميته الباقية ، بلْ هي التي تعطيه جماله الفني نفسَه فليس الجمال الفني... ناتجًا من من محرّدِ اتقانِ الشاعرِ للوسائل الأدائيّةِ وبراعتِه في استخدامها وتطويعها، لا،وليس ناتجًا من صِفة ميتا فيزيقيةٍ موهومة أوْ مُثُلٍ جماليّةٍ مجرّدةٍ ، بل الجمال الفنيُّ ... ناتجٌ من أتقان الشعر لفهم تجاربِ الإنسانية الحاشدة ،ونجاحه في تصوير مشاكل البشر وآمالهم ،وما فيهم من جرائم النفسِ ومطامح النبل وما تضطربُ به نفسياتهم وحياتهم من مسراتٍ ومتاعب ونجاح وإخفاقٍ وعزاءٍ وأمانيّ (١)"

فمعنى الشّاعرية هو الرؤية الخاصّة بالشاعر بالحياة التي تحيط كونًا وإنسانًا وعلاقته بها على نحو يحقق الصدق الفنيّ

فهو لايريك الحياة من حوله كما هي خارجه،ولكنه يريكها كما هي فاعلةٌ فيه،لأن الإشياء مادية أو غير مادية ليست قيمتها في ذاتها،وإنما في تأثيرها ،وما تتركه فيمن يتلقها . فليست قيمة الشاعر في تصويره مشهدًا كمثل قيمة أداة التصوير تنقله كما هو دون

---

١) الشعرز الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه . محمد النويهي. الدار القومية للطباعة والنشر – القاهرة (ج٢ص٨٨٣-٨٨٤)

شعور ،ولذا كان فرقٌ شسيع بين مشهدِ التقطتة آلةٌ مصوّرة ،ومشهد رسمته ريشة رسّام أو صورته كلمة شاعرة لأن الريشة ،والكلمة مزجتا تأثير المشهد في الرّسام والشاعر بالواقع ، فاستحال شيئًا أخر.

ولمّا كانت الكلمة الشاعرة هي تصوير للرؤية الشعرية للإشياء وإحساس الشاعر بها ومدى تأثيرها فيه،وكان ذلك يتنوع بتنوع أحوال الشّاعرِ وأطوار حياته كان لزامًا أن تكون إبداعه متجاوبًا مع هذا التنوع، ولو أمكن لك أن تَرصد مقالة شاعر في شيْءٍ في باكر عمره،ومقالته فيه في أواخره لرأيت فرقًا في الرؤية منعكسًا في الصورة التي يتغنّى بها.

والإدراك المحيط بما في الشعر الجاهلي من عطاءات ومناقب «يقتضي مراجعةَ الشّعر الجاهليّ كلّه أوْ على أقلّ تقديرٍ مراجعة قدر كبيرٍ منه واسْتجلاء محاسنه وروائعه ، وتذوق ألوان الجمالِ والبيانِ فيه، ومطالعةِ وجوه البراعةِ والبلاغة منه ...حيثُ يغرفُ هناك وزن الكلامِ وتدرك قيمةُ الكلمةِ ويُمايزُ بين الكلامِ والكلامِ كما يمايز بين الجواهر والحصَا»([1])

ويعمد الإستاذ الخطيب إلى معلقة امرئ القيس لما لصانعة من حصانة ضد ادعاء أنه شخصية أسطورية كما يذهبُ بعض من ينكرون الشعر الجاهلي،ويدعون أنه كله منحولٌ لأسباب متوهمةٍ فهي أبعد المعلقات عن الشك،وهي تمثل النموذج الصريح لما كان عليه الشعر الجاهلي من تصوير الحياة.

وعمد الأستاذ الخطيب إلى سرد ما تضمنه المعلقة من مشاهد وموضوعات ومواقف جمعت كثيرًا من الحياة الجاهلية التي عاشها امرؤ القيس ، فأنت في تلقيها تبصر الحياة الجاهلية، وهي تنقلك وتقيمك فيها، فكأنك واحدٌ من أهلها إن أحسنت التلقّي. وخير الشعر من يحمل متلقيه إلى ما هو مصوره، فكأنه قائم فيه تراه بصيرته كما رأته بصيرة الشاعر. هذا القدرة التخييلية أي جعل المتلقي يبصر بأذنه ،وتستحيلُ الصورة السمعية إلى مشهد منظور ،وقد كان لرسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وصَحبِهِ وَسَلَّمَ – القدح المعلى في هذا

---

[1]) الإعجاز فقي دراسات السابقين.ص: ١٢٩

روى مسلم في صحيحه بسنده ٧١٤٢ عَنْ أَبِى عُثْمَانَ النَّهْدِىِّ عَنْ حَنْظَلَةَ الأُسَيِّدِىِّ قَالَ - وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ - لَقِيَنِى أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ قَالَ قُلْتُ نَافَقَ حَنْظَلَةُ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ قَالَ قُلْتُ نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- **يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْىَ عَيْنٍ** فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا قَالَ أَبُو بَكْرٍ فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا. فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قُلْتُ نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « وَمَا ذَاكَ ». قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْىَ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِى وَفِى الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلاَئِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِى طُرُقِكُمْ وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً ». ثَلاَثَ مَرَّاتٍ.

ويصطفي أستاذُنا الخطيب ُمشهدَ وقوف امرئ القيس على أطلال الديارِ التي كانت محبوبته تنفث فيها نعيم الحياة وبهجتها ، فتثور ذكرياته ،وهو الذي استفتح المعلقة بقوله «قِفا نَبْكِ مِن ذِكرَى حَبيبٍ وَمَنزِلِ» فالذكرى كما يقول شيخنا أبوموسى هي معقد القول في المعلقة.

يقُول شيخنا - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - :«إنّني لا أجدُ في القصيدةِ بيتًا واحدًا ولا صورة واحدة ولا خاطرة واحدةً خارجةً أو منحرفةً عن هذا المعنى المتسع والمكون من هذه الكلمات(قِفا نَبْكِ مِنْ ذِكرى)

وكلّ القصيدةِ صورٌ استَرجعتها الذكرَى وبكاها الشاعرُ حتى الصّيد والمطرُ الذي كان يُرى برقُه صَاحبَهُ ويقعدُ هو له يرقبُه»(١)

يصفي أستاذنا الخطيب قول امرئ القيس :

تَرَى بَعَرَ الأرامِ في عَرصَاتِها * وَقيعانِها، كأنّهُ حَبُّ فُلْفُلِ

كأنّي غَداةَ البَينِ، يَومَ تَحَمَّلُوا * لَدَى سَمُراتِ الحَيِّ ناقِفُ حَنظَلِ

---

(١) الشعر الجاهليّ دراسةٌ في منازع الشعراء . نشر مكتبة وهبة. القاهرة الطبعة الأولى عام ١٤٢٩هـ .ص ٢٩

ويفسر لك بعضًا من الكلم، يراها ضرورة لتأنس بالشّعر، ثم بَدأ يبث ما انعكس في نفسه من تلقاه هذا المشهد ،وكأنه كان قائمًا يرقبُ امرأ القيس ويسجل مشاعره التي تموج فيه أمام هذا الطلل وما بعثه على اختيار هذه الكلماتَ المصورة جُوّانِيَّه وبَرانِيّه ، فكلّ كلمة لا سبيلَ إلى أن تقيمَ غيرها مقامها ، فكأنّها خلقت لِتصورَ ما يعتلجُ فِي صدرِ امرئ القيس ، فكان لها اقتدارٌ على أن تشق لك عن صدره وتريك ما يعتلج فيه ، فهو بهذه الكلمات ونسقِها قد أذن لك أن تلج في صدره، فتبصر ما فيه. فيستحيل ما سمعت أذنك مشهدًا تراه عينك، وتنفعل به نفسُك

ومضَى إستاذُنا يُبين لنا ما هو قائم فيه من تبصره وتذوّقه وتدبّره هذيْن البيتين، ليريك أنّ هذا الشّعر هو المصور رؤية الشاعر للحياةِ القائم فيها الّتي هي جزء من الحياة الجاهلية في زمن امرئ القيس ،وكأنّه يقول لك : إنّك إن استقريْت ما جاء به أمرؤ القيس لأمكنك أن ترصد الحياة الجاهلية في زمانه ، فكان بهذا سجلًا أمينًا لوقائع الحياة التي عاشها،وكذلك كل شاعر جاهلي يسجلها وفق رؤيته لها ، لا كما هي قائمة خارجه.

ولو أنّك ذهبت تستقرِئُ مقالة النقاد وشرّاح هذه المعلقة في تذوق هذه الصورة قديمًا وحديثًا وناظرت رؤية كلّ شارح وناقد بغيرها وما اختلفت فيه وما اتفقت لرأيت فيضًا متنوعًا من تلقي هذه الصورة ، كلٌ بحسب ملكته ومهاراته وأدواته في التلقي ـ ممّا يبين لك أن هذه الصورة في سياقها تملك بكلماتها وتراكيبها ونغمها قدرة على أن تجعل هذا المعنى متجددًا متنوعًا في ذائقة كل شارح وناقد،وهذا هو أساس من أسس الإبداع الشعري .

لا يبث في صدرك متقلبًا أحوذيا ما يبثه في غيرك،وكأنه يعطي كلًا ما هو أليق به ، فيشعرك بفرادتك وخصوصيتك عنده.

*****

[**يتبع إن شاء الله الحلقة الثالثة والأخيرة**